الكلُّ بانتظارك يا (سيريوس)

بين تلك الأدغال العتيقة، وفي غوطة تغزل أفنانها البساطة والوئام، وتحت سماء تحتوي الجميع، ترعرع صبي في أحضان والديه وهم يرتشفون مع أهل القرية العناية الإلهية ويقتاتون مما تجود به الطبيعة عليهم، كانت القرية جميلة وهادئة، بعيدة عن لغط الحضارة وعبثها، كلُّ حديث يغمر العالم لا يحتويها، ولا يعني سكانها.

شهد الوالدان في وحيدهما (سيريوس) نبوغاً سابقاً لعمره، كان متعة العائلة ومصدر فخرها، حينما شبَّ سيريوس أخذه والده إلى العطار (أفانتا) الذي يقطن على سفح الجبل المطلّ على القرية، ليتعلَّم منه مهنة العطارة، فهي مهنة متميِّزة وتتطلب ذكاءً وقوَّة، وابنه يستحق هذا التميُّز ،مع أنَّ سيريوس كان يرى في الزراعة ميلاً وأفقاً، لكنه رضخ تحت رغبة والده، على كلٍّ هناك وحدة في الاتجاهين.. فهو يتعامل في الحالتين مع الطبيعة وخيراتها.

أما العطار أفانتا فقد رفض كثيرين جاؤوا قبله

لعدم أهليَّتهم لهذه الصنعة، في حين أن سيريوس قد جذبه إليه ببريق عينيه، فالألق يلمع في سوادهما والبياض يحيط بالسواد في اتساع محيط، و تلك النظرة الحادقة تنمُّ على ذكاء يرغِّبه فيه ويخيفه منه في آن معاً، كما أن بنيته الجسدية عظيمة ستعينه على تحصيل الأعشاب البرية بعدما كبر عمره ونحل جسده.

مضت الأيام وسيريوس الساعد الأيمن لأفانتا في تحصيل الأعشاب البرية، الطبية منها والعطرية، كان يتابع حركات معلمه العشوائية وخلطاته الغريبة التي تصنِّع أجود العطور وأفضل المسكِّنات.

كان سيريوس يتعلم بسرعة وحذاقة، لكن أمراً غريباً ظلَّ معضلاً لديه ولا يهتدي به إلى جواب، كان يتساءل باستمرار.. ما سرُّ هذه الخلطات العجيبة..؟ ما الذي يضعه معلمي فيها حتى يعود الناس إليه بطلب أكبر على تلك الخلطات، أيتعمَّد معلمي انتكاس المرضى وتدهور حالتهم الصحية..؟ أم أن ذلك هو أفضل ما توصَّلت إليه خبرته..؟ و ما سرُّ هذه العطورات العجيبة التي تستقطب كلَّ أفراد القرية، و لمَ هم أنفسهم يترددون عليه دائماً وبإلحاح أكبر..؟

كانت التساؤلات تتفاقم في خلده وتتعاظم يوماً تلو يوم، وهو يحاول أن يكتشف جواباً لكل تساؤلاته، يتابع

جميع تحرُّكات معلمه، ويترقَّب اللحظة التي ينجِّي فيها معلمه من براثن ظنه، ويأوي إلى جحر البراءة والأمان.

أفانتا رجل ذكي وحريص، يخشى من اللحظة التي يفكر فيها أحد أن يطوِّر مفهوم العطارة، أو يكتشف دواءً ناجعاً أكثر من خلطاته، فهو يرغب في السيادة والاحتكار ولا يرضى لأحد أن يشاركه في سطوته العلوية على أفراد القرية، فقد كان يرى في ذلك التسلُّط متعة وإرواءً لفطرته، غير أن ذكاءه قد خانه بعد سنوات ثلاث لازمه فيها سيريوس.

لم يكن ذلك اليوم ببعيد،.. في غاره العميق.. حينما باغته تلميذه سيريوس وهو يقف خلفه ويرقب خلطاته دون أن يشعره بوجوده، أراد أن يسأله.. هل مكثت طويلاً خلفي..؟ لكن.. لم يكن هناك من داع للسؤال، فقدح السواد في عيني صبيه قد أجاب عنه، تذكَّر اللحظة التي جذبته إليه فقبله تلميذاً لبريق عينيه، وهاهو ذا البريق يهدد كيانه، فقد اشتعلت في سيريوس شرارة الثورة.. هل اكتشف سرَّه..؟

قال له بحدَّة : ما بك يا سيريوس..؟ لمَ تقف خلفي على هذه الصورة ؟

أجاب سيريوس بحنق وتهكُّم شديدين : أتعلَّم منك يا معلمي، أكتشف سراً لم تطلعني عليه بعد..!

حاول أفانتا التجاهل وهو لا يصدِّق انهيار سرِّه، قال له : أيُّ سرّ..؟

أجاب سيريوس : هذه العشبة التي ترسلني من أجلها إلى أقصى الأماكن بعداً كي أحضرها لك (الخيط البري) كانت تنفد عندك باستمرار، وكنت لا تستطيع عنها غنى، وتقول لي.. ليس لها بين الأعشاب بديل، إنها تعزز مناعة الجسم وتدعِّم فوائد الأعشاب الأخرى، ألم تأكل منها شاتنا أمس بالخطأ، وهي الآن في خَدَر ونعس لم تصح منه بعد..؟

أجاب أفانتا بتلعثم : لقد أكثرت من الكمية فأصبح معها اختلاطات أخرى.

قال سيريوس : لا أظن ذلك يا سيدي، لم تكن إلا عشبة واحدة ابتلعتها ونامت من فورها، ثم إنني كنت أراقب تأثير كل عشبة منذ مدة ليست بقليلة، حتى توصلت إلى نتيجة ما تمنيتها يوماً، أطرق رأسه متألّماً :

ليتك يا معلمي بقيت بصورة معلم الخير والسلام..!

أُسقط في يد أفانتا ولم يكن هناك حل في المراوغة، سأله بهدوء المهادن : ما الذي ترمي إليه..؟

قال سيريوس حانقاً : أبناء القرية.. طوَّقتَ عنقهم بعشبة الخيط البري، جعلتهم في خَدَر عن كلِّ ما

حولهم، أخمدت كل نشاط وحماس كان يتأجج داخلهم، أصبحوا عرضة للكسل والخمول، دائماً يتشاكون المرض، يتبارون في الشكوى، لا يتحرَّك فيهم شيء إلا لسانهم.

وقف على باب الغار واستأنف : انظر إلى القرية من هنا، من غارك العالي، تأمَّل كم أجدب سهلها..! تأمَّل كيف نضبت سواقيها..! القرية في انحدار وانقراض، وأنت سبب انقراضها..!

لأول مرة منذ ثلاث سنوات، بل منذ سنوات خبرته كلها يعلن أحد أمامه نتيجة انتصاره ويواجهه بحقيقة أفعاله.

تبسَّم بتهكُّم، كشف القناع عن نواياه القميئة : ألستم تدَّعون أنَّ لكم ماضياً عريقاً..؟ ليأت هذا الماضي ويخلِّصكم من أمراضكم، أنتم الذين آويتموني في غربتي بعين الشفقة أنه لا أصل لي ،ليأتِ أصلكم وينجيكم من رعونتي.

كان سيريوس يحدِّق في شخص معلمه وقد تصدَّع وانهار، قال بتجلُّد :

ألا تخشى أن أفشي سرَّك أمام أهل قريتي..؟

أجاب أفانتا بهدوء غريب وهو يعبث بأعشابه :

لك أن تحفظ السرَّ وأسلِّمك العمل في القرية

المجاورة لتنهج نهجي، ويكون لك اسمك ومكانتك بينهم، كما اسمي ومكانتي بينكم.

سأله سيريوس بحنق: وإنْ لم أقبل..؟

قال أفانتا :.. أنت حرّ، لكن عليك أن تعلم أنهم وإن علموا السرّ لن يستغنوا عنه، لقد جرى الخيط البري في جسدهم كمجرى الدم من الشرايين، ما عادوا يقدرون على الصوم عنه، أخبرهم إن شئت.

بكل أسى.. بكل ضيق.. بكل عنفوان.. خلع سيريوس عنه ملاءة العطارة، ما أرضعته الطبيعة يوماً حياكة مؤامرة كهذه..! وضع الملاءة أمام معلمه، انسحب من غار العطارة وأوجاع القرية كلها تصبُّ في قلبه، يريد أن يصحو من صدمته بمعلمه، يريد أن يتماسك أمام مصيبة أهل قريته، هاهو ذا الآن مشرَّد لا يعرف مأوى، ولا يجد مأمناً يحميه من صدمات أخرى، فقد فَقَد ظهراً عزيزاً، وبات وحيداً يحمل مسؤولية إنقاذ قريته، تسربلت في بدنه حميَّته، هو من اكتشف السرّ، وهو من يجب أن يكتشف الدواء.

كان عليه أن يمضي ويمضي، في كل خطوة يبتعد فيها عن الغار كان يمشي على صدره ويدوس على شرف معلمه،.. راح يحدِّث نفسه بأسى.. ثلاث سنوات.. كنت أرمي حملي عليه، أرتاح لمثاليته في نظري، لو لم أثق به لما أخذت عنه، آلآن بعد هذه

المدة.. وبعد هذا العلم.. يتعرَّى لي..؟ تنفضح نواياه الدفينة...؟ حتى لو كنت على حق ولو كان على باطل، لكنني أعلو على من علمني..! أهجره..! ما هذه الازدواجية المؤلمة..؟

بالرغم من عنف صدمته لكن إحساسه بالمسؤولية تجاه أهل قريته كان يمنحه الشجاعة ليثبت ويتابع مسيره، مضى بين الأدغال، نام على الأشجار، تعرَّض للمخاطر، أنهكته الهواجس.. وبقي يمضي..

كان يبحث طوال مسيره عن عشبة ما، عشبة تفكُّ سحر الخيط البري، لم يكن بذهنه أيَّة مواصفات عن العشبة الناجعة، لكنه حاول أن يفكر، أن يستخلص حلاً من تجاربه العشبية مع معلمه، آلمته عباراته: ليأتِ أصلكم وينجيكم من رعونتي..

جلس هنيهة مع ازورار الشمس ليستريح، جاءته الذاكرة من بعيد، صدح في سمعه صوت جدته وهي تحكي له الحكايا، حين كانت تحكي عن عشبة ماء الحياة، هذه العشبة النادرة التي تجبل مع قطر الندى وينثر عليها مياسم زهر الحنَّة فتتحوَّل إلى دواء يشفي من كل داء.

ابتسمت أسارير سيريوس، شكراً لك يا جدتي، شكراً على حكاياك التي آتت أُكلها الآن.

نهض من مجلسه مغتبطاً.. قال بهمّة عالية : عليّ إذن بعشبة ماء الحياة..!!

راح سيريوس يبحث عن عشبة ماء الحياة.. طرق مسافات بعيدة، لم يترك سفحاً أو سهلاً أو وادياً إلا وداسته قدماه بحثاً.. مضت الأيام والليالي، كلما أشرقت الشمس أشرق معها أمل بيوم جميل، وكلما غربت غرب ذاك الأمل إلى زوال، حتى إذا عادت وأشرقت عاد الأمل وولد من جديد..

طالت الأيام، وسيريوس في طريقه إلى نهاية العالم ولمّا يعثر بعد على عشبة ماء الحياة ،

أبناء القرية في اضمحلال، والعطار على سفحه العالي مازال يصنّع لهم ذلك الخدر..

نسي الجميع سيريوس، لكن سيريوس لم ينسَ.. ولم ييئس، هو يبحث بعيداً عن ماء الحياة..

على قمة أحد الجبال، هبت عواصف عتيدة، زمجر البرق والرعد في وجه سيريوس، أخذ الرعب منه كل مأخذ، صرخت الطبيعة فيه عالياً.. لقد ابتعدت كثيراً عن عشبة ماء الحياة، عدْ من حيث أتيت..!

سكن الرعد و البرق، عادت السماء إلى صفائها والعصافير إلى زقزقتها، لقد تأخّر سيريوس كثيراً قبل أن يعلم أن عشبة ماء الحياة هي في القرية نفسها،

وأنَّ جدته لمَّا حكت عنها ما كانت قد خطت قدمها خارج حدود قريتها.

هاهو ذا الآن في عود.. ليستخرج عشبة ماء الحياة من الأرض التي عشقها، يبحث عنها بين البيوت والمزارع التي أقفرت، على ضفاف السواقي التي أجدبت، في قلوب أهله التي تحجّرت، سيخبر أهل القرية عن العشبة ليبحث عنها الجميع، ويتداوى بها الجميع، يجب أن يصحوا من خدرهم..!

إنه يسرع.. لكنه بعيد.. غير أنه سيأتي، أين أنت يا سيريوس.. عجّل.. الكل بحاجتك، الكل بانتظارك..!

obeikandl.com